آليات اكتساب الهوية بين الذات و الآخر

د.عواج بن عمر
كلية العلوم الإنسانية و العلوم الاجتماعية
جامعة تلمسان

تعمل الهوية على أنها مجموع تمثلات ذهنية تسمح للأفراد بإيجاد سبل للتواصل والاستمرارية بين تجاربهم الحاضرة و الماضية، فهي عملية حيوية على مختلف المستويات الوظيفية والعقلية التي بواسطتها يستطيع الفرد أن يقيم أو أن يحكم على نفسه على ضوء الكيفية التي يكتشف أن الآخرين يحكمون عليه من خلالها بالمقارنة معهم، كما تمثل عامل التكيف الاجتماعي الذي يسعى الأفراد إلى الحصول عليه من خلال العملية المستمرة لبنائها بهدف التواصل مع الآخر، هذا الأخير الذي يمثل المجتمع الذي يعمل من خلال وسائل التنشئة الاجتماعية المتاحة على تحضير و إعداد الأفراد داخله، لتبدأ العملية منذ الطفولة ، و هو المستوى نفسه الذي يبدأ فيه الشعور بالوجود و بالتالي ضرورة التميز و الاختلاف، أي بداية الشعور بالهوية، و فيما يلي توضيح لآليات اكتساب هذه الهوية من خلال الذات و المجتمع.

أولا التقمص l'identification ، إننا نقصد بالتقمص المعنيين الذين يحملهما حيث يعبر الأول عن قيام الفرد على التعرف على شيء ما من خلال جملة من الصفات، أما الثاني فهو العمل الذي يقوم به الفرد ليتشبه أو يتطابق مع فرد آخر، فيتبنى بذلك صفاته.

إنها عملية واعية يسعى من خلالها الفرد إلى اكتساب هوية، و قد أشار *فرويد* إلى هذا المفهوم و علاقته بمحاولة الأفراد إلى اكتساب هويات خاصة، حيث يقول *لابلانش* Laplanche بإن التقمص أو اكتساب الهوية قد أخذ بالتدريج مكانة واسعة عند *فرويد* فهي تمثل أكثر من عملية نفسية، إذ هي العملية التي من خلالها يتكون الفرد الإنساني.[1]

و قد توصل *طاب* Tap إلى ثلاثة شروط أساسية لتسهيل عملية التقمص، حيث يفترض التقمص ميولا من الفرد نحو النمط الذي سوف يتقمصه،كما يفترض تشابها بين الفرد و النمط الذي سوف يتقمصه، بالإضافة إلى أنه يشترط قوة النمط الذي سوف يتم تقمصه.[2]

ثانيا الأفعال و الأشياء و التي تمثل محددات أخرى للهويات كونها جزء من المحيط العام الذي يعيش فيه الفرد و الذي يساعده على تكوين التمثلات الذهنية المحددة للهوية.

ترتبط الذات بالفعل، ذلك أنها تعتبر عملية تنطلق من التجارب المرتبطة مباشرة بالفعل[3]، إذ أن الفعل يساعد الفرد على تحديد نوعية الشيء، و النشاط الخاص به على شكل تمثلات ، بهدف تكوين قاعدة أو مرجعية معرفية للمحيط حوله، حيث أن هذه الأشكال و الكيفيات هي ذاتية و وظيفية في آن واحد فهي بذلك تقوم على بعدين اثنين هما الطاقة الوظيفية و قوة تأثير الفعل.[4]

و من خلال ما سبق يمكننا القول بأن قوة تأثير الفعل ترجع إلى الضغوط التي يمارسها على الفرد، كالعمل على أن يكون هذا الفعل مرغوبا فيه داخل المجتمع، و عليه يحاول الفرد أن يقوم به و ذلك من خلال الطاقة الوظيفية التي هي عبارة عن قدرة يسندها الفرد إلى نفسه و التي تساعده في الوقت ذاته من الابتعاد عن الفعل الغير مرغوب فيه، تحدث هذه العملية من خلال نسق من أشكال و كيفيات تفاعل الأنا مع المحيط

الخارجي، و الذي يعمل الفرد على تكوين هويته من خلاله، إذ يعتبره الفرد في أغلب الأحيان تجريبيا يسعى من خلاله إلى الدخول في مواقف غير عادية حتى يتسنى له تجريب قوة فعله و ليتمكن من تحديد ايجابياته و سلبياته.

لقد ساعدت أعمال بوش في إبراز دور الفعل الحيوي في تكوين الهوية، حيث قوة تأثيره و طاقته الوظيفية تمكن الفرد من اكتساب معرفة إمكانية القيام بالفعل، و يكون بذلك قد عرف نفسه و تمكن من تعريف الآخر به.

في حين يمثل الشيء لدى صاحبه جانبا سيكولوجيا قد يرمز إلى أفكار أو أحداث أو تطلعات خاصة به، حيث نجد بوش يقول:"إن القيمة الذاتية للشيء تجسد الأبعاد التي من خلالها يحاول الفرد أن يعرف نفسه.[5]

نفهم من خلال هذا القول أن الفرد يحاول أن يجعل من الأشياء نقاط استدلالية لهويته حيث يرمز كل شيء إلى خاصية يتمتع بها.

إن هذه الأشياء تساعد الفرد على تحديد ملامح في هويته و التي يحاول من خلالها التعريف بذاته، حيث استمرارية و إدماج هذه الأشياء في سلوكات بل و في طريقة تفكير الأفراد تجعلها تسجل وجودها و وجودهم، يقول بوش :" إن الأشياء توفر لنا إطارا منظما لشعورنا الداخلي للهوية بكيفيات مختلفة، و ذلك بإضفاء طابع الاستمرارية على الماضي و بإدماج مدلول أو معاني جديدة في المحيط المادي و بتسجيل أعمالنا بواسطة استعمال الأشياء و باقتراح أشكال ايجابية للأفعال و بتسجيل وجودنا من خلال الأدوار و الوضعيات الاجتماعية."[6]

يعتقد بعض الباحثين بأن مفهوم الهوية مرتبط بأعمال *اريكسون* و الذي كانت نظريته تقوم أساسا حول مفهومي الذات و الأنا،حيث عملية بناء الهوية حسبه هي مبدأ التنظيم الذي بواسطته يحافظ الفرد على بقائه كشخصية متماسكة مع ماهيته و الاستمرارية في تجربته الذاتية و واقعيته للآخر.[7]

يعتمد تكوين الهوية إذن على تجاوب الجانبين الذات و الأنا كمحددات للهوية حيث كل تغيير أو تجدد في الذات

يتضمن بطريقة آلية تغييرا أو تجددا في الهوية، كما أن كل اختلال في الذات يحدث اضطرابا في الهوية و فقدانا للأنا.[8]

يعمل المجتمع على تكوين الأفراد من خلال التنشئة الاجتماعية، بحيث يصبح كل فرد يرى نفسه في سلوكات الآخر و الذي يمثل بالنسبة له نقطة استدلال قد يتعرف من خلالها عن صورته الحقيقية، من هنا تبرز إذن أهمية الآخر في تكوين هوية الفرد، حيث تعتبر علاقة الفرد بالآخر وسيلة يعزز بها هويته الذاتية و يبني بواسطتها صورته عن ذاته.[9]

كما تسعنا الإشارة هنا إلى وجود تلك العلاقة الارتباطية بين الذات و الآخر و التي تتلخص في التمثل الذهني عن الذات و تمثل الآخر عن نفس هذه الذات، بحيث يسمح هذا التمثل للفرد من تصحيح و إعادة تصحيح ذاتيته مع الإبقاء عليها.

إن التكامل الموجود بين الذات و الآخر يعد أكثر من شرط، فهو يبني الشعور بالهوية الشخصية و هو ما يفسر ازدواجية الشعور بالذات لها و للغير.[10]

و بما أن الآخر يتمثل في الجماعة و التي تلعب دورا أساسيا في عملية الهوية و من هذا المنظور فان **بيسر** يشير الى أن هناك ثلاثة مراحل لعلمية التقمص داخل الجماعة:[11]

-عدم التفرقة: و تتميز بإرادته على تقليد سلوك و اتجاهات هذه الجماعة.

-التفرقة: أين يحاول الفرد أن يتميز من خلال إبراز خصوصيته.

-الهوية الحقيقية: أين يدرك الفرد تشابهه و اختلافه في الوقت ذاته مع الجماعة.

تؤكد أعمال بيسر دور الجماعات (كآخر) في بناء هوية الأفراد من خلال عملية التقمص أو اكتساب الهوية، و قد تختلف هذه الجماعات باختلاف الأدوار التي يلعبها الفرد فهو عضو داخل جماعة و فاعل داخل تنظيم و عليه يمكننا مبدئيا افتراض ازدواجية مصدر تكوين هوية الفرد لهويته الاجتماعية من خلال الثقافة المجتمعية من جهة و ثقافة المؤسسة من جهة أخرى.

و في محاولة منا لفهم أفضل لمفهوم الهوية سوف نحاول من خلال ما يلي تحديده من خلال التصنيفات التي قدمها المفكرين بعد ملاحظتهم لواقع الهوية كمحاولة للإجابة عن السؤال القائم حول إمكانية وجود هويات متعددة : هل توجد هوية واحدة أم هويات متعددة؟.

هوية ايجابية/ سلبية: يكون تمثل الفرد لنفسه و خصائصه سلبيا أو ايجابيا و تعتبر هذه العملية إدراكية لما ينتظره الآخرون منه.

و تعبر الهوية الايجابية عن إحساس الفرد بتمتعه بمجموعة من الصفات تساعده على التأثير في كل ما حوله(أفراد، أشياء، و أفعال...)، بل و إدارة محيطه، هذا الإحساس ناتج عن التمثل الايجابي الذي يحمله الفرد عن نفسه مقارنة بالآخرين.[12]

في حين تعبر الهوية السلبية عما يحمله الفرد من تمثلات سلبية حول نفسه و التي يكونها من خلال تفاعله مع الآخرين، حيث يميل الفرد صاحب الهوية السلبية إلى الإحساس بعدم التقدير من طرف الآخرين و الناتج عن بعض التفاعلات

الغـير مرغـوب فيهـا، و حقيقـة الأمـر أن الحكـم بالـسلب أو الإيجاب على الأفراد راجـع إلى طبيعـة اسـتجاباتهم لمـا ينتظـره منهم الآخرون.[13]

تشير أبحاث *مالوسكا* و أعوانها حول أزمـة الهويـة و الانحـراف لـدى المهـاجرين[14] و الـتي دارت حـول المهـاجرين المغاربة ، بأن هؤلاء كانوا يبنون تـصرفاتهم و سـلوكاتهم علـى أساس التمثلات التي يحملها الآخرون عنهم، كونهم ينتمون إلى طبقات يمكن اعتبارها دنيا مقارنة بالمواطنين الأصليين، و هو ما دفعهـم إلى احتقـار صـورتهم و هـو الـسبب الـذي أدى إلى انحرافهم.

إن أهم ما يمكن استخلاصه من هذه الدراسـة هـو أن الهوية التي يحملها الأفراد سلبية كانت أم ايجابية هي الـتي تحـدد سلوكاتهم و اتجاهاتهم.

هوية مفتوحة/ مغلقة: يـسمي *سـيفالي* الهويـة المغلقـة تلك التي يعتمد أصحابها بناءها علـى أسـاس تمـثلات واحـدة تكون غالبا تلك التي يحملونها هم عن أنفسهم، و منه فهـويتهم هي مـا يريـدون هـم أن يعرفـوا مـن خلالهـا بخـصائص معينـة

يحددونها مسبقا لأنفسهم، بينما الهوية المفتوحة هي ما تم بناءه وفق تمثلات متعددة و مختلفة يحملها الفرد حول نفسه، و يحملها الآخرون عنه، أي هي مبنية وفق تعددية في التعريف.[15]

الهويات الجماعية(الهوية الدينية، الثقافية، الوطنية و المهنية...): تمثل الهوية الدينية اشتراك مجموعة من الأفراد في معتقدات و قيم واحدة و التي تضمن استمرارية أداء الطقوس الدينية كالصلاة.

بينما تشير الهوية الثقافية إلى تلك الخصوصية التي تميز جماعة بشرية عن غيرها و التي تحمل دلالتها من المحددات الأساسية لثقافة الأمة كاللغة و التاريخ و المصير المشترك.[16]

و إذا كانت الهوية الثقافية تتحدد من خلال مرجعيين أساسين هما الثقافة و الوطنية، فالهوية الوطنية إذن هي المرجعية التي تشمل السمات الثقافية التي تقوم عليها الهوية الثقافية، و عليه فهي تعرف على النحو التالي: تمثل الهوية الوطنية مجموع الصفات أو السمات الثقافية العامة التي تمثل الحد الأدنى المشترك بين جميع الأفراد الذين ينتمون إليها و التي تجعلهم

يعرفون و يتميزون بصفاتهم تلك عن سواهم من أفـراد الأمـم الأخرى.[17]

أما الهوية المهنية فهو مـصطلح جـاء بـه *سانـسوليو* في كتابه الهويـة في العمـل علـى إنهـا تمثـل كـل المعـايير و القـيم، القواعد و الانتماءات المتعددة التي تعتـبر المرجعيـات الـتي يـتم تعريف أعضاء جماعة العمل مـن خلالهـا[18]، فهـي تفـسر كيـف يؤدي الفاعل(سواء على المستوى الفردي أو الجماعي) مهامـه، دوره، و ما هي الصورة التي يقدمه فيها زملائه في العمل.

و في هذا الـصدد يـشير *هيبرمـان* إلى تـأثير الهويـة المهنية على الهوية الشخصية و ذلك من خلال التـأثير في الفـرد مـن حيـث تخطيطـه لمـستقبله و تـصوره لمركـزه الاجتمـاعي كذلك.[19]

هوية اجتماعية/ شخصية: تعبر الهوية الاجتماعية عـن الصورة التي تحملها الجماعة عن الفرد و عن السلوكات التي تنتظرها منه، كما تعبر عـن الجانـب الموضـوعي لهويـة الفـرد و الذي يسمح بتعريفه من طرف الغير، فهي بـذلك تحـدد موقعـه في النظام السوسيواقتصادي(من خلال الفئة السوسيومهنية التي

ينتمي إليها)، و النظامين الثقافي و السياسي(توجهاته الايدولوجية و معتقداته الدينية...) و كذلك في النظام البيواجتماعي الذي ينتمي إليه(الجنس، السن، الحالة المدنية...).

لم يفرق علماء الاجتماع لفترة طويلة من الزمن بين الهوية الاجتماعية و الهوية على اعتبار الأولى تحدد الضمير الجمعي كما يعرفه *دوركايم* على أنه طرق عيش و إحساس و حكم الفرد، و هو الأمر الذي توصل إليه فيما بعد علماء الاجتماع على أن ضمير الأنا لأي فرد يرتبط بالفئة التي ينتمي إليها.

في حين تمثل الهوية الشخصية محاولة صاحبها إلى إثبات كينونته identisation أو التماهي أين يهدف أن يكون ما اختاره لنفسه(بطريقة شعورية أو لا شعورية)، و هو الأمر الذي نعته *اريكسون* بثنائية الهوية la dualité d'identité[20]،بحيث هي إحساس واع بالخصوصية الفردية من جهة، و من جهة أخرى هو محاولة لاشعورية تهدف إلى تثبيت تضامن الفرد مع الجماعة من خلال الأفكار المشتركة، تتكون

الهوية الشخصية من خلال الأزمات التي يمر بها الفرد خلال مراحل حياته المختلفة، حيث المرحلة الأكثر أهمية هي مرحلة المراهقة حسب *اريكسون*.

فالهوية هي عملية مستمرة تنشأ بين محددات نفسية و اجتماعية، بحيث لا يصل صاحبها إلى الكمال، إذ أنها عبارة عن استجابة للأزمات التي يمكن أن يواجهها الفرد.[21]

و لعل أهم و أعقد أزمة للهوية يمكن أن يواجهها الفرد خلال مراحل حياته المختلفة تتلخص في الاضطراب الوظيفي للثقافة [22]و الذي يؤدي إلى عدم امتلاك هوية ثقافية، حيث لا يتمكن الفرد هنا من تبني نمط ثقافي معين كالإحساس بالاغتراب داخل المؤسسة، بحيث تصحب هذه الحالة أزمة أخرى ألا و هي غموض الأدوار بحيث لا يستطيع الفرد أن يتموقع أو أن يأخذ مكانا بالنسبة للآخرين، مما يجعل عملية التعريف بالذات صعبة إن لم نقل مستحيلة لما يحدث من خلط بين الثقافات و الأدوار و تعبر هذه الحالة عن عدم استقرار الهوية.

و على اعتبار الهوية مجموعة التمـثلات الذهنيـة الـتي يحملها الفرد عن نفسه و تلك التي يحملها الآخرون عنـه، فهـي تحاول إثبات ذاتيتها من خلال محيطها الـداخلي و الخـارجي، و لذلك يمكننا أن نجد للهويات مجموعة من الأشكال المختلفة.

الهوامش:

[1-] LAPLANCHE.J et autre : Vocabulaire de la psychologie, P.U.F , Paris, 1967, p187.

[2-]TAP.P : L'identification est-elle une aliénation de l'identité, In colloque de toulouse, 1986,p250.

[3-] BOESCHE.E : Action et objet : deux sources de l'identité du moi, In colloque Toulouse, 1980, p24.

[4-] Ibid,p24.

[5-]Ibid, p26.

[6-] Ibid. p31.

[7-]ERIKSON.E.H, op.cit, p74.

[8-]Ibid. p225.

[9-] LAING.R.D : Soi et autres, Guallimard ,Paris, 1971, p73.

[10-] RODRIGUEZ.H.T : Le moi et l'autre dans la conscience de l'adolescent, de la chaux, 1972, p5.

[11-] BEISSER.A.R : La formation de l'identité à l'intérieur du groupe, In journal de psychologie humaniste, 1972, pp 133-146.

[12-] MALEWSKA.P.H : Le processus de dévalorisation de l'identité et les stratégies identitaires , P.U.F.Paris, 1990, p114.

[13-]Ibid. p 113.

[14-]MALEWSKA.P.H : La crise d'identité et déviances chez les jeunes immigrés, la documentation française, Paris, 1982, pp53-64.

[15-]CIFALI.M : Le malaise identitaire des enseignants d'aujourd'hui, enseignement catholique, actualités, n°25, avril 2000, p17.

[16] – خالد حامد: المدخل إلى علم الاجتماع، جسور للنشر و التوزيع، ط**1**، الجزائر، **2008**، ص**168**.

[17]–أحمد بن نعمان: الهوية الوطنية: الحقائق و المغالطات، دار الأمة للطباعة و الترجمة و النشر، الجزائر، د.س.ط، ص**23**–**25**.

[18-] SAINSEULIEU.R: l'identité au travail, Press de la fondation nationale des sciences politiques, Paris, 1988, pp14-20.

[19-]HUBERMAN.M et al : Perspectives on the teaching career, International handbook of teachers and teaching, Boston. A.P, 1997, p43.

[20-]ERIKSON.E.H : Sciences humaines, n°15, déc-jan1997, p13.

[21-] GUIEST-DES PRAIRIES : L'identité comme processus entre liaison et dé liaison, Education permanente n°128,1996, p65.s

[22-] MALEWSKA.P.H et GACHON : Le travail social et les enfants de migrants, l'Harmattan, 1988, p223.